

النفس الإنسانية عند الغزالي

د. أحنف الباجة



المقدمة

يُعد كتاب "معارج القدس في مدارج معرفة النفس" لحجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي (ت 505هـ) من أنضج ما كتبه الغزالي في موضوع النفس الإنسانية. إذ يجمع فيه بين التحليل الفلسفي البرهاني والمقصد الروحي التزكوي في بنية واحدة مندرجة، والكتاب ليس مجرد عرض مدرسي لنظرية النفس كما عرفها الفلاسفة المشأؤون، بل هو إعادة بناء لها ضمن أفق إسلامي يجعل معرفة النفس مدخلاً لمعرفة الله تعالى، وتهذيبها سبيلاً إلى السعادة الأبدية.

ينطلق الغزالي في هذا الكتاب من المقولة النبوية: "من عرف نفسه فقد عرف ربه"، ليبني مشروعاً معرفياً يبدأ بإثبات وجود النفس وتمييزها عن البدن، ثم يندرج في بيان قواها ومراتب عقلها، ثم ينتقل إلى تهذيبها وتركيتها، ثم يصعد بها إلى مقام المعرفة العليا والسعادة الحقيقية. وبهذا يكون الكتاب جامعاً بين الفلسفة وعلم الكلام والأخلاق والتصوف في نسق واحد.

يهدف هذا البحث إلى استخلاص نظرية الغزالي في النفس الإنسانية كما تتبلور في هذا الكتاب، وتحليل محاورها الكبرى، وبيان ما يميزها عن النظريات الفلسفية المحضة.

المبحث الأول: ماهية النفس وأسمائها

تعدد الألفاظ ووحدة المعنى

يبدأ الغزالي بتمييز دقيق بين الألفاظ التي تُطلق على الحقيقة الباطنة للإنسان: القلب، والروح، والعقل، والنفس. ويقرر أن هذه الألفاظ وإن اختلفت دلالتها بحسب المقام والسياق، فإن المقصود بها في أحد إطلاقاتها الجوهرية هو شيء واحد: تلك الحقيقة الإنسانية الباطنة التي بها الإدراك والمعرفة والتكليف والإرادة.

فالقلب في أحد معانيه ليس العضو اللحمي، بل هو اللطيفة الربانية المدركة للعالمية. والروح ليست البخار اللطيف الساري في العروق فحسب، بل هي أيضاً تلك الحقيقة المجردة. والعقل ليس مجرد العلوم المكتسبة، بل هو القوة المدركة ذاتها. والنفس ليست مجموع الشهوات والغرائز، بل هي في أشرف معانيها ذلك الجوهر الذي يميز الإنسان عن سائر الحيوان.

إثبات وجود النفس

يقيم الغزالي البرهان على وجود النفس من خلال تحليل الأفعال الصادرة عن الكائنات الحية. فإن كان الفعل يجري على نسق واحد بلا شعور ولا إرادة، فمبدؤه نفس نباتية (كالتغذية والنمو). وإن كان مع شعور وإدراك جزئي بلا تعقل كلي، فمبدؤه نفس حيوانية (كالإحساس والحركة الإرادية). وإن كان مع العقل والاختبار وإدراك الكليات، فمبدؤه نفس إنسانية ناطقة.

والحجة المركزية هي أن إدراك الكليات والمعقولات المجردة لا يمكن أن يصدر عن جسم منقسم أو عضو مادي، لأن المعقول الكلي لا ينقسم ولا يتجزأ ولا يشغل حيزاً. فلا بد إذن من مبدأ غير جسماني يقوم به هذا الإدراك، وهو النفس الناطقة.

المبحث الثاني: قوى النفس الإنسانية

القوى الظاهرة والباطنة

يفصل الغزالي قوى النفس الإنسانية تفصيلاً يستند إلى التراث الفلسفي المشائي، مع توظيفه في أفقه الخاص. ويقسم هذه القوى إلى:

أولاً: الحواس الظاهرة، وهي خمس: البصر، والسمع، والشم، والذوق، واللمس. وهي أدوات النفس في إدراك الجزئيات المادية الحاضرة.

ثانياً: الحواس الباطنة، وهي:

القوة	الوظيفة	الموضع
الحس المشترك	جمع المحسوسات من الحواس الخمس في صورة واحدة	مقدم الدماغ
الخيال (المصورة)	حفظ الصور بعد غياب المحسوس	مقدم الدماغ
المتخيلة (المفكرة)	تركيب الصور وتفصيلها	وسط الدماغ
الوهم	إدراك المعاني الجزئية غير المحسوسة (كالعداوة والمحبة)	وسط الدماغ
الحافظة (الذاكرة)	حفظ المعاني التي أدركها الوهم	مؤخر الدماغ

ثالثاً: القوة العاقلة، وهي التي تدرك الكليات والمعقولات المجردة، وهي خاصة الإنسان التي يتميز بها عن الحيوان.

وحدة النفس وتعدد القوى

يؤكد الغزالي أن النفس ليست عين الحاسة الجزئية، بل هي المبدأ الجامع الذي يستخدم جميع هذه القوى استخدام الآلة. فكما أن الكاتب يستعمل القلم ولا يكون هو القلم، كذلك النفس تستعمل الحواس والقوى ولا تكون هي إياها. وهذا التمييز يمهد لبرهان التجرد، لأن الجهة التي تجمع المدركات المختلفة وتحكم بينها وتتجاوز الجزئي إلى الكلي لا يمكن أن تكون مجرد عضو جسماني.

المبحث الثالث: مراتب العقل والإدراك

المراتب الأربع للعقل

يشرح الغزالي مراتب العقل شرحاً يقترب من الترتيب الفلسفي المعروف عند الفارابي وابن سينا، لكنه يوظفه في سياقه الخاص:

- العقل الهولاني (بالقوة): وهو الاستعداد المحض لقبول المعقولات، كاستعداد الطفل للكتابة قبل أن يتعلمها.
- وهو أصل فطري مشترك بين بني الإنسان، وإن تفاوتت درجاته.

- العقل بالملكة: وهو حال النفس حين تنال المبادئ الأولى البديهية (كعلمها بأن الكل أعظم من الجزء)، فتصير قادرة على الاستدلال والنظر.
- العقل بالفعل: وهو حال النفس حين تحضّل المعقولات وتستحضرها متى شاءت، بعد أن كانت مخزونة بالقوة.
- العقل المستفاد: وهو أعلى المراتب، حين تصير المعقولات حاضرة للنفس على الدوام، وتتصل النفس بالعقل الفعّال اتصالاً تاماً.

العقل الفعّال والفيض

يقرر الغزالي أن العقل الفعّال هو المبدأ الذي يفيض بالصور المعقولة على النفس إذا تم استعدادها. وهذه الصياغة تُظهر حضور البنية المشائية في الكتاب، لكن الغزالي لا يقف عندها، بل يربطها بالهداية الإلهية والتوفيق الرباني.

تفسير آية النور

في موضع بالغ الأهمية، يفسّر الغزالي آية النور (الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة...) تفسيراً معرفياً:

- المشكاة: مثال للعقل الهولاني (الاستعداد)

• الزجاجاة: مثال للنفس الصافية المستعدة

• الشجرة والزيت: مثالان لمواد الفكرة وقربها من الإشراق

• المصباح: مثال لنور العقل بالفعل

• النار: مثال للإفاضة العليا من الله تعالى

وهذا يدل على أن الغزالي يعيد قراءة القرآن ليشرح به البنية المعرفية للنفس، ويجعل النص القرآني مصدراً للتأمل الفلسفي لا مجرد شاهد خارجي.

العقل والشرع: علاقة تكامل

يقرر الغزالي أن العقل لا يهتدي وحده إلى الكمال إلا بالشرع، وأن الشرع لا يُفهم على وجهه إلا بالعقل. فالعلاقة بينهما تكاملية لا تعارضية: الشرع كالشعاع والعقل كالبصر، أو الشرع كزيت المصباح والعقل كالسراج، ولا نور بلا شعاع، ولا شعاع بلا بصر يدركه.

وهذا محور جوهرى في فهم النفس الإنسانية عند الغزالي: كمالها المعرفى ليس فلسفياً صرفاً ولا نقلياً صرفاً، بل هو ثمرة تناغم العقل مع الوحي.

المبحث الرابع: تجرّد النفس وعدم جسمانيّتها

أدلة التجرد

يقيم الغزالي عدة براهين على أن النفس الناطقة ليست جسماً ولا منطبعة في جسم:

البرهان الأول: النفس تدرك المعقولات الكلية التي لا تنقسم ولا تتجزأ. ولو كانت النفس جسماً منقسماً، لانقسم فيها المعقول، وهذا محال. فإن مفهوم "الوحدة" مثلاً لا يتصور انقسامه في محل مادي.

البرهان الثاني: النفس تجمع بين مدركات الحواس المختلفة وتحكم بينها (فتقول: هذا الأبيض حلو). ولا يمكن لعضو جسماني واحد أن يكون محلاً للبصر والذوق معاً. فلا بد من جهة غير جسمانية تجمع هذه المدركات.

البرهان الثالث: الجسم يضعف بكثرة الأفعال، بينما النفس تقوى بكثرة التعقل والمعرفة. فالشيخ الحكيم أقوى عقلاً من الشاب، رغم ضعف بدنه. وهذا يدل على أن العقل ليس تابعاً للجسم في أحكامه.

علاقة النفس بالبدن

يقرر الغزالي أن علاقة النفس بالبدن هي علاقة تدبير واستعمال، لا علاقة حلول أو انطباع. فالنفس تدبّر البدن وتستعمله آلةً لأفعالها في عالم المادة، كما يستعمل الفارس فرسه أو الصانع أدواته. وليست النفس حالةً في البدن حلول الماء في الإناء، ولا منطبعة فيه انطباع الصورة في المرآة.

المبحث الخامس: حدوث النفس وبقاؤها

حدوث النفس

يقرر الغزالي أن النفوس الإنسانية حادثة بحدوث الأبدان، لا قديمة أزلية. وهو في هذا يخالف من ذهب إلى قدم النفوس أو تناسخها. فالنفس تُخلق عند تهيو البدن لقبولها، وتُفاد عليها من الجهة العليا (العقل الفعال بإذن الله).

بقاء النفس بعد الموت

يقيم الغزالي برهانين على بقاء النفس بعد فناء البدن:

البرهان العقلي: النفس جوهر بسيط مجرد لا ينقسم ولا يتحلل. والفساد إنما يلحق المركبات بانحلال تركيبها. فالنفس لبساطتها لا يلحقها فساد ولا فناء.

البرهان النقلي: نصوص القرآن والسنة صريحة في بقاء النفوس بعد الموت وحسابها وجزائها. قال تعالى: "ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يُرزقون".

المبحث السادس: النفس بين الفلسفة والأخلاق

القوى العملية والفضائل

ينتقل الغزالي من البعد النظري للنفس إلى بعدها العملي والأخلاقي. فيبين أن النفس الإنسانية تتضمن ثلاث قوى عملية:

القوة	كمالها	انحرافها إلى الإفراط	انحرافها إلى التفريط
القوة العقلية (المدبّرة)	الحكمة	جربرة وخداع	بلادة وغفلة
القوة الغضبية	الشجاعة والحلم	تهوّر وحدّة	جبن وخنوع
القوة الشهوانية	العفة والقناعة	شره وفجور	خمود وبلادة حسّ

أمهات الفضائل الأربع

يقرر الغزالي أن الفضائل الكبرى أربع:

الفضيلة	مصدرها	ضدّها بالإفراط	ضدّها بالتفريط
الحكمة	اعتدال القوة العقلية	الجربرة والمكر	البلادة والغفلة
الشجاعة	اعتدال القوة الغضبية	التهوّر	الجبن
العفة	اعتدال القوة الشهوانية	الشره والفجور	الخمود
العدالة	انتظام القوى الثلاث معاً	الظلم	الانظام

والعدالة هي الهيئة الجامعة التي تنتظم بها القوى جميعاً في توازن واعتدال. وهذا يكشف أن النفس عند الغزالي ليست موضوع معرفة نظرية فحسب، بل موضوع تركية وبناء أخلاقي، وأن سياسة الباطن هي الطريق إلى كمال الإنسان.

التركية ليست إعداماً للقوى

يؤكد الغزالي أن الزهد والورع وكسر الشهوة ليست مقصودة لإعدام القوى النفسية، بل لردّها إلى ميزان الاعتدال. فالقوة الشهوانية ضرورية لبقاء النوع، والقوة الغضبية ضرورية للدفع والحماية. إنما المطلوب تهذيبها لا إبادةها، وترويضها لا قمعها.

المبحث السابع: النفس والنبوة

تدرّج مراتب النفوس

ينظر الغزالي إلى النفوس الإنسانية من منظور تدرّجي:

نفس إنسانية عامة: تشترك في أصل العقل والإدراك.

نفس مهذبة فاضلة: حصّلت الفضائل واعتدلت قواها.

نفس ربانية مؤيدة بالفيض: بلغت مقام الإلهام والكشف.

نفس نبوية: ذروة الكمال الإنساني في المعرفة والهداية.

الرسالة والاستعداد النفسي

يقرر الغزالي أن الرسالة عطية إلهية وليست ثمرة كسب بشري مجرد. ومع ذلك فإن النفس قد تنهياً لها بالرياضة والعبادة وتصفية القلب. فالعطاء النهائي رباني، لكن الاستعداد النفسي والخلقي له دور في القابلية.

ويسرد علامات الاستعداد الأعلى في النفس: صفاء الفطرة، حسن الصورة، تمام الاعتدال، طهارة النسب والتربية، حب الخير، الصدق، الأمانة، الحياء، الرحمة، والزهد في الرذائل. وهذه ليست مجرد أخلاق اجتماعية، بل بنية نفسية تؤهل الإنسان لمراتب القرب والإلهام.

إثبات الرسالة بالبرهان

يبين الغزالي أن انتظام الأفعال الإنسانية على جهة المقاصد والمصالح الكبرى لا يفهم إلا بوجود عقل مؤيد بالوحي. كما يربط صلاح الاجتماع الإنساني

وكمال العمران بالحاجة إلى شريعة ووحى. وبذلك تصبح النفس الكاملة النبوية ذروة النظام الإنساني كله، والنموذج الأعلى لما يمكن أن تبلغه النفس البشرية.

المبحث الثامن: مصير النفس وسعادتها

السعادة الحقيقية

يقرر الغزالي أن النفس إذا بلغت كمالها العقلي في الدنيا ثم فارقت البدن، فإنها تنال لذة عقلية عظيمة لا تشبه اللذات الحسية. هذه اللذة ليست عرضاً بدنياً، بل هي إدراك النفس لكمالها ولقربها من عالمها العلوي. والسعادة الحقيقية للنفس ليست في الأكل والشرب والخيال البدني، بل في المعرفة والاتصال بالمعقولات والأنوار الإلهية.

السعادة والشقاء بعد الموت

يميّز الغزالي بين حالين للنفس بعد مفارقة البدن:

حال السعادة: للنفوس التي تهيات بالعلم والفضيلة والعمل الصالح. هذه النفوس تجد في مفارقة البدن تحريراً وانطلاقاً نحو عالمها الأصلي، فتنال لذة المعرفة والقرب من الله.

حال الشقاء: للنفوس التي بقيت أسيرة الشهوات والأوهام. هذه النفوس تتألم لفقد الآلة التي كانت تقضي بها شهواتها، وتكشف لها حقيقة فقرها وحرمانها. فالشقاء ليس عقوبة خارجية فحسب، بل هو انكشاف فقر النفس وعجزها.

شروط النجاة

يربط الغزالي السعادة الأخروية بثلاثة أركان:

العلم الصحيح: معرفة الحقائق والعقائد الصحيحة.

العمل الصالح: الالتزام بموجب الشرع.

تهذيب النفس: تزكية الأخلاق وتطهير الباطن من العلائق.

فمن حصل هذه الثلاثة فله الدرجة العليا. ومن نال بعضها دون بعض، فأمره يختلف بحسب درجة التحصيل والتعلق.

المبحث التاسع: معرفة النفس طريقاً إلى معرفة الله

النفس مرآة المعرفة

يختم الغزالي مشروعه ببيان أن معرفة النفس ليست غاية مستقلة، بل هي طريق إلى معرفة الله تعالى. فالنفس مرآة قابلة للصفاء أو الكدورة؛ إذا صفت انعكست فيها أنوار المعرفة الإلهية، وإذا تكدرت بالشهوات والأوهام حُجبت عن مطلوبها الأشرف.

وكمال النفس لا يتحقق بالمعرفة النظرية المجردة فقط، بل بترقيها من إدراك الصور والمعقولات إلى حضور أشرف يتعلق بمعرفة الله وأفعاله وصفاته على قدر الطاقة البشرية.

التهذيب شرط معرفي

يتأكد في هذا المقام أن تهذيب النفس وتطهيرها من علائق الشهوة والغضب والوهم ليس مجرد أدب أخلاقي، بل هو شرط معرفي ووجودي لبلوغ مقام المعرفة العليا. فالعائق أمام النفس ليس نقص البرهان فقط، بل حجب

الباطن وتعلقاته. ومن هنا يلتقي التصوف بالفلسفة عند الغزالي: التزكية ليست بديلاً عن العقل، بل هي تحرير للعقل من قيوده.

وحدة المشروع الغزالي

تتضح في هذا المستوى الأخير وحدة المشروع الغزالي في "معارج القدس": بدءاً من البرهنة على ماهية النفس، ومروراً بقواها ومراتب عقلها، ثم تهذيب أخلاقها. وانتهاءً ببيان أن غايتها القصوى هي السعادة القائمة على القرب من الله والمعرفة به. فمعرفة النفس ليست غاية مدرسية، وإنما مدرج صعود إلى معرفة الرب. والإنسان كلما عرف نفسه وقواها وحدودها وسبل تهذيبها، اقترب من إدراك معناه الحقيقي ومصيره الأخير.

الخاتمة

يتبين من هذه الدراسة أن نظرية النفس الإنسانية عند الغزالي في "معارج القدس" تتميز بعدة خصائص جوهرية:

أولاً: أنها نظرية تركيبية تجمع بين التحليل الفلسفي البرهاني (في إثبات النفس وقواها وتجردها) وبين المقصد الروحي التزكوي (في تهذيبها وتوجيهها نحو الكمال).

ثانياً: أنها نظرية تدرّجية ترى النفس في سلّم صاعد: من الاستعداد المحض إلى التحصيل العقلي، إلى التهذيب الأخلاقي، إلى المعرفة الإلهية، إلى الذروة النبوية.

ثالثاً: أنها نظرية غائية لا تقف عند وصف النفس وتحليلها، بل تسأل عن غايتها ومصيرها وسعادتها، وتجعل كل ذلك مرتبطاً بمعرفة الله والقرب منه.

رابعاً: أنها نظرية تكاملية بين العقل والشرع. لا تلغي أحدهما لحساب الآخر، بل تجعل كل منهما شرطاً لكمال الآخر.

وبهذا يكون الغزالي قد قدّم في "معارج القدس" مشروعاً فريداً يتجاوز الفلسفة المحضة والكلام المجرد والتصوف المنفرد، ليبني نظرية شاملة في النفس الإنسانية تجمع بين العلم والعمل والمعرفة والتزكية في وحدة عضوية متماسكة.

المراجع

- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. معارج القدس في مدارج معرفة النفس. بيروت: دار الكتب العلمية. ط1. 1409هـ/1988م.
- الغزالي، أبو حامد. إحياء علوم الدين. بيروت: دار المعرفة.
- الغزالي، أبو حامد. تهافت الفلاسفة. تحقيق سليمان دنيا. القاهرة: دار المعارف.
- الغزالي، أبو حامد. المنقذ من الضلال. تحقيق جميل صليبا وكامل عياد. دمشق.
- الغزالي، أبو حامد. مشكاة الأنوار. تحقيق أبو العلا عفيفي. القاهرة.
- ابن سينا، أبو علي الحسين. الشفاء: كتاب النفس. تحقيق الأب قنواطي وسعيد زايد. القاهرة.
- الفارابي، أبو نصر. آراء أهل المدينة الفاضلة. تحقيق ألبير نصري نادر. بيروت.

- أبو ريان، محمد علي. تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام.
بيروت: دار النهضة العربية.
- بدوي، عبد الرحمن. مؤلفات الغزالي. الكويت: وكالة
المطبوعات. 1977م.
- الجابري، محمد عابد. بنية العقل العربي. بيروت: مركز
دراسات الوحدة العربية.